٨٢

مجلة علوم التربية

دورية مغربية نصف سنوية

ملف العدد :

المجلس الأعلى للتعليم
وندوة "المدرسة والسلوك المدني"

العدد الخامس والثلاثون- أكتوبر 2007

بيداغوجيا الكفايات وسؤال التجديد التربوي

• ذ. محمد بوصحابي *

تقـديـم:

حظيت بيداغوجيا الكفايات باهتمام واسع من قبل مختلف الفاعلين في حقلي التربية والتكوين، نظرا لما تفتحه هذه المقاربة الجديدة من آفاق واعدة وخصبة تسمح للدارسين باستثمار نتائجها في عملية التجديد التربوي حتى يصبح أكثر ملاءمة لمستجدات الواقع السوسيو اقتصادي.

وقد تواثرت في العقد الأخير من القرن 20، العديد من الكتابات حول موضوع الكفايات باعتبارها جسرا يربط بين المدرسة والحياة، فقد ظهرت المقاربة بالكفايات بشكلها النسقي المقعد في الدول الأنجلوساكسونية، وانتشرت بعد ذلك في الدول الفرنكفونية (فرنسا_ بلجيكا_ كندا (كبيك)[1].

غير أن تبني هذه الاستراتيجية وضمان نجاحها على مستوى التطبيق رهينان بإعادة النظر في منظومتنا التربوية وفق تصور شمولي يراعي أبعاد النظام التربوي وامتداداته داخل المحيط حتى لا تظل هذه المقاربة مجرد نزوة فكرية عابرة أو صيحة في واد، ذلك أن التجارب علمتنا أن العبرة ليست بالإطلاع على المستجدات التربوية فقط ولكن بالتطبيق الفعلي والسليم لها ومراجعتها باستمرار.

1-زئبقية المفهوم وتنوع الدلالة:

إن افتحاص كل التعريفات التي حاولت تتبع هذا المفهوم في بعديه النظري والإجرائي تقودنا إلى تسجيل الملاحظات التالية:

*باحث في علوم التربية التربية

1. إن تداول هذا المفهوم وهيمنته على الخطاب التربوي السائد يمكن اعتباره انعكاسا إيجابيا لمقولة «مونتني» «العقل المنظم خير من العقل المليء».

2. اختلاف المفهوم حسب المرجعية النظرية التي ينهل منها، والمنطلق الإبستمولوجي الذي يصدر عنه: «الفهم المعرفي والسلوكي للكفاية».

3. يكتسب المفهوم دلالة مطاطية تنتقل من حقل إلى آخر (إدارة ـ معمل ـ مدرسة ـ مقاولة).

4. تأثر هذا المفهوم بالعوامل الثقافية والسوسيو اقتصادية.

5. صعوبة تقديم تعريف جامع مانع للكفاية باعتبارها مقاربة متجددة باستمرار.

إن غنى هذه التعريفات وتنوعها جعلها تكتسب دلالات مختلفة تبعا لظروف الزمان والمكان وحقلي الاستعمال والتداول، إضافة إلى أن مصطلح «كفاية» يتقاطع مع مجموعة من المفاهيم الأخرى كالمهارة والاستعداد والقدرة والإنجاز والسلوك، مما يفرض على الباحثين في مجال التربية تحصين مكتسباتهم النظرية والمعرفية حتى يدركوا الحدود الفاصلة بين هذه المصطلحات التي تشكل زخما مفاهيميا بامتياز[2].

إن بيداغوجيا الكفايات رغم تنوعها وغناها وتعدد مشاربها، فإنها شكلت ولا تزال طفرة نوعية، وثورة تصحيحية داخل بيداغوجيا الأهداف،حيث ظهرت الكفايات في سياق النقاشات التربوية التي واكبت التدريس بالأهداف ، ولهذا يمكن اعتبارها وريثة شرعية لبيداغوجيا الأهداف ./ الجيل الثاني من الأهداف حسب تعبير محمد الدريج /.

2 -بيداغوجيا الكفايات بين إغراءات التنظير و إكراهات التطبيق:

أثارت بيداغوجيا الكفايات بعد ظهورها في الغرب ردود أفعال مختلفة بين مؤيدة ومعارضة حيث قام بعض الدارسين بتقديم حصيلة أولية لهذه المقاربة و مدى نجاعتها في حقلي التربية و التكوين ومن أمثلة ذلك الندوة التي أقامتها الجمعية الكيبيكية لبيداغوجيا التعليم بحضور أطر تمثل الوزارة الوصية حول موضوع «مفهوم الكفاية في التكوين العام « وذلك بتاريخ7-9-1995 بمدينة Rivière- du loup وقد قام بتأطير أشغال هذه الندوة Raymond robert tremblay أستاذ الفلسفة وباحث في التربية[3]. وقد أفرزت هذه الندوة مجموعة من الخلاصات والنتائج التي أضاءت بعض النقاط المعتمة في مسار التدريس بالكفايات والتي سنعود إليها بعد حين. إن ما يهمنا في هذا المقال هو إبراز مدى ملاءمة هذه الاستراتيجية لواقعنا التربوي إذ لا يكفي التبجح بالشعارات الجوفاء، وتدبيج المذكرات الوزارية بعناوين ومبادئ عامة تحث على تبني هذه الاستراتيجية بدعوى الموضة والتحديث ومواكبة ما يجري في الضفة الأخرى متجاهلين الإكراهات التي يحبل بها واقعنا التربوي، ولهذا ينبغي استنبات الفضاء الملائم لكي تحقق هذه المقاربة النتائج المتوخاة.

لقد شكلت هذه المقاربة الجديدة بالنسبة للمهتمين إغراءا نظريا وتحديا منهجيا نظرا لطابعها البراغماتي الذي ينشد النفعية والمردودية في المجال التربوي عبر ربط المدرسة بالحياة والانتقال بالممارسة التعليمية من

إبدال التلقين إلى إبدال التعلم أو التدريب الذي يمكن التلاميذ من تحقيق هدفين رئيسيين هما حسن الأداء Savoir Faire وحسن التواجد Savoir Etre من خلال تكييف التعلمات لمواجهة المشكلات وامتلاك القدرة على حلها مع ضرورة تحيينها ومراجعتها وتقويمها كلما تطلب الأمر ذلك. لكن النوايا الحسنة للمشرع التربوي فيما يخص اعتماد هذه الاستراتيجية تصطدم ببعض الإكراهات التي تحد من فعاليتها، وتجعل مكتسباتها محدودة مما يجعل مصيرها مثل مصائر التجارب التربوية السابقة التي تعاملت مع المدرسة كحقل للتجريب. وفيما يلي جرد لبعض هذه الإكراهات:

ـ لازالت منظومة تكوين المدرسين في بلادنا تخضع لتصور تقليدي بروم نقل المعارف وشحن الأذهان وملء الفراغات دون مراعاة ما استجد في ميدان الديداكتيك ومحاولة تكييفه مع خصوصياتنا الثقافية والاجتماعية، لذا يجب مراجعة المناهج والبرامج الخاصة بمراكز التكوين، وتفعيل منظور التكوين المستمر حتى نضمن تكوين المدرسين تكوينا مبنيا على الكفايات[4].

ـ قلة الوسائل والتجهيزات وورشات العمل التي تمكن من الاشتغال في ظروف جيدة.

ـ يصعب الحديث عن الكفايات في ظل الاكتظاظ الذي تشهده المدرسة المغربية.

ـ إعادة النظر في محتوى البرامج الدراسية التقليدية التي تركز على المضامين في حين أن المقاربة بالكفايات تعتمد في بناء البرامج الدراسية على قاعدة الكفايات وهي ليست مقررا تقليديا بل هي مجموعة من المهارات أي ما يجب أن يتقنه المتعلمون إذ يتم تحديد ذلك في شكل كفايات[5].

ـ غياب تصور مجتمعي واضح حول أدوار المدرسة وأهدافها ييسر تحديد الحاجيات والبحث عن الوسائل وإيجاد الحلول.

ـ تطرح بيداغوجيا الكفايات سؤالا مؤرقا حول النفعية في مجال التعليم وعلاقتها بالمجانية، فهل تتعارض المجانية مع النفعية ؟

ـ قد تجهض المقاربة بالكفايات مبدأ «تكافؤ الفرص» بين المتعلمين إذا لم نستحضر معطيات البيداغوجيا الفارقية حتى نضمن جودة التعليم للجميع ونحقق مفهوم المدرسة العادلة أو الديموقراطية (المقارنة مثلا بين طلبة التعليم العالي العام والخاص قد تغنينا عن السؤال).

ـ إكراه الزمن : يجب إعادة استثمار الزمن الدراسي وفق منظومة الكفايات.

ـ إعادة النظر في أشكال التقويم التربوي بمختلف أنواعه، وعدم اختزال التقويم التربوي في صيغة الامتحانات وفق خريطة مدرسية لا تعكس حقيقة أفعال التعليم ذلك أن الاختبارات قد تضمن نجاح التلميذ في مرحلة دراسية معينة، لكنها لا تضمن بالضرورة إدماجه في سوق العمل، لهذا يجب تحديث منظومة التقويم حتى تساير استراتيجية الكفايات وفي هذا الإطار يمكن الاستعانة بالتقويم مرجعي المحك / Critère référentiel (المحك المرجعي) والذي يتلاءم مع طبيعة التدريس بواسطة الكفايات «لأنه يتأسس على مقاييس ترتبط بالمادة الدراسية وأهدافها ومدى امتلاكها من طرف التلاميذ». كما أن هذا التقويم يهدف إلى «وصف

سلوك المتعلم وصفا شاملا ودقيقا بغية تشخيص جوانب القوة والضعف واقتراح أساليب العلاج» 6.

ـ استفحال ظاهرة الفشل الدراسي في المدرسة المغربية، ومن ثم فإن بيداغوجيا الكفايات هي جواب عن سؤال الهدر الدراسي من خلال محاولة هذه المقاربة الجديدة إدماج المتعثرين في مجالات تناسب مؤهلاتهم وقدراتهم.

رغم تشخيصنا لمكامن الخلل في نظامنا التربوي بغية تصحيحها وتجاوزها فهذا لا يعني أن المدرسة المغربية عاجزة عن تفعيل هذه الاستراتيجية على أرض الواقع، إذ يكفي توفير الشروط المناسبة وتأهيل الموارد البشرية لتحقيق نقلة نوعية في مجالي التربية والتكوين وهذا ليس بعزيز على المدرسة المغربية التي حققت أهدافا نبيلة كمغربة الأطر وتعميم التمدرس وتكوين أجيال جديدة قادرة على ركوب التحدي والانخراط في مغرب الألفية الثالثة، ومن هذا المنطلق فإن بيداغوجيا الكفايات قد تصبح مدخلا ضروريا للتصالح بين المدرسة والمجتمع.

3- بيداغوجيا الكفايات: مظاهر إيجابية وأخرى سلبية:

سبقت الإشارة إلى الحصيلة الأولية التي قدمت خلال الندوة التي نظمتها الجمعية الكبيكية لبيداغوجيا التعليم بتعاون مع مسؤولين على الوزارة الوصية وتحت إشراف «رامون روبير ترومبلاي» أستاذ الفلسفة وباحث في التربية7، وقد ركزت أشغال هذه الندوة على قضايا ومحاور هامة من بينها رصد المظاهر الإيجابية والسلبية للتدريس بالكفايات، وتعميما للفائدة سنسرد هذه المظاهر لعلها تنير لنا الطريق وتدلل أمامنا الصعاب والإكراهات التي قد تواجهنا في الحاضر والمستقبل.

1) المظاهر الإيجابية:

(1) فيما يخص التعلم أو التدرب: أفرزت الحصيلة الأولية ما يلي:

- تبدو النتائج المنتظرة من قبل التلاميذ واضحة ومحققة بشكل لافت وقدر كبير.
- تجعل هذه المقاربة التلاميذ أكثر اطمئنانا على مستقبلهم لأنهم ببساطة يعرفون وجهتهم.
- تجعل المقاربة بالكفايات التلاميذ أكثر حماسا وتحفيزا ونشاطا.
- تسمح للتلاميذ بتخيل دور الكفايات في وضعيات الشغل ـ الكفاية الوظيفية.
- تسمح هذه المقاربة بتطوير وتحسين إدماج المعارف وانسجام التعلمات.
- ترسخ ثقافة المسؤولية لدى التلاميذ وتجعلهم مستقلين بذواتهم عن طريق الاستعانة بالتقويم التكويني.
- تيسر هذه المقاربة عملية انتقال وتحويل التعلمات/ التدربات.
- تجعل المقاربة بالكفايات التلاميذ في محور أنشطة التعلمات.

- تجعلنا هذه المقاربة نأخذ بعين الاعتبار حاجيات وقدرات التلاميذ
- تمكننا من ضبط إيقاعات التعلم (معرفة اللحظات القوية للتعلم، ولحظات الفتور).

(2) فيما يخص التعليم أو التدريس: أفرزت الحصيلة الأولية ما يلي:

- تمكن المقاربة بالكفايات من وضع تصميم جيد للدروس.
- تؤيد الاختلاف وتتضمن مرونة في الوسائل من أجل تحقيق الأهداف.
- تتضمن أيضا استعمالا مكثفا للتقويم التكويني.
- تسمح هذه المقاربة بمراجعة التطبيقات والاستعمالات التربوية.
- تحدث المقاربة بالكفايات تحولات وامتدادات بين المواد والشعب (الكفايات الممتدة) كما تفرز انعكاسات تربويا جماعيا.
- تشجع المقاربة بالكفايات التشاور بين المدرسين في التكوين العام والتكوين المهني.
- تقود المقاربة بالكفايات إلى توحيد في مجال تصميم الدروس وتحديد الحاجيات والمستلزمات، كما تشجع مبدأ عدالة التقويم وتقارب مستويات التعليم.
- تسمح هذه المقاربة بإقامة جسور متينة وعلاقات جيدة بين أهداف التكوين العام والتكوين المهني.

انطلاقا مما تقدم فإن بيداغوجيا الكفايات تعمل على توضيح أهداف التعلم وتجيب عن انتظارات التلاميذ، وتمركز التكوين حول مفهوم التعلم كمكتسب إيجابي فضلا عن كونها تتيح الفرصة للمدرسين للتشاور حول آليات الاشتغال وظروف الإنجاز وأساليب التقويم.

2) المظاهر السلبية:

فيما يخص المقاربة بالكفايات: أفرزت الحصيلة الأولية ما يلي:

- تحتوي التوجهات التربوية والإدارية على كثير من التردد والغموض والتداخل.
- تسليط الضوء على الغموض الذي يحيط بمفهوم الكفاية.
- تم شرح وتفسير هذه المقاربة بطريقة محدودة.
- تحديد الكفايات وحصرها في مجال السلوكات.
- وجود خلط وغموض من خلال الربط الجدلي بين طرفي المعادلة التالية (درس = كفاية)

فيما يخص المواد ومحتويات الدروس:

المحتويات غير محددة في المذكرات والتوجيهات الوزارية.

- غياب الانسجام بين المواد من خلال قاعدة المحتويات.

فيما يخص الإجراء أو المحاولة:

- تم التسرع في استنبات بيداغوجيا الكفايات في حقلي التربية والتكوين.
- تَملُّكُ هذا الإجراء (المقاربة) لم يكن ممكنا نظرا لضيق الوقت.
- غياب آلية التشاور داخل المؤسسات التربوية.

استنتاج: رغم ردود الفعل المتباينة التي أفرزتها بيداغوجيا الكفايات وطنيا ودوليا إن على مستوى التنظير أو الممارسة، فإن المحك الحقيقي لاختبار مدى نجاعتها هو التطبيق السليم لخطواتها الإجرائية مع مراعاة الخصوصيات والتمايزات التي يمكنها إغناء النظرية وإثراؤها.

وتأكيدا لما سبق يمكن القول : إن بيداغوجيا الكفايات هي بمثابة البوصلة التي توجه الفعل التربوي نحو تحقيق غاياته المنشودة شريطة توفر الدعائم المادية والبشرية والتربوية. إن تفعيل هذه المقاربة يطرح أيضا سؤال الاستمرارية وعدم القطع مع التجارب التربوية السابقة بغية تجاوز الهنات وتحصين المكتسبات حتى نضمن تحقيق الشعار التالي: «التجديد التربوي في ظل الاستمرارية» الذي يفرض علينا مساءلة هذا المفهوم إن حاضرا أو مستقبلا.

مستقبل بيداغوجيا الكفايات:

تعتبر الكفاية طاقة توليدية متجددة باستمرار أو هي «علم الدراية»[8]. الذي يستدعي الإلمام بكل المستجدات والمتغيرات خاصة في ظل هيمنة تكنولوجيا الإعلام والاتصال، لذا يجب على الفاعلين التربويين تحيين الكفايات المطلوب توفرها لدى التلاميذ وتوقع أو استباق كفايات على المدى القريب أو المتوسط أو البعيد، وهذا يتطلب إقامة حوار دائم بين المدرسة والمجتمع بتمظهراته المختلفة، إن الحديث عن مستقبل الكفايات رهين بما يلي:

- تحديد الحاجيات المجتمعية باستمرار من خلال تفعيل إنجازات السوسيولوجيا التربوية.
- تطوير الكفايات الموجودة وخلق أخرى جديدة تسمح بتنشئة جيل قادر على التفكير والتمعن واستعمال الفكر النقدي العقلاني المكتسب لقيم كونية إنسانية وجمالية والمتمكن من أدوات البحث عن المشكلات الصعبة واقتراح الحلول لها.

إن مستقبل الكفايات في أي قطر من الأقطار مرتبط أشد الارتباط بمسألة تجديد النخب. وبالنسبة لبلدنا أعتقد أن النخب تتكون داخل المنظومة التربوية لكن هذا لا ينفي وجود شروط أخرى لإنتاج النخب مثل الطبقة، لكن يبقى دور المدرسة بارزا في إفراز النخب التي تخترق الطبقات وقد ركز الميثاق الوطني للتربية والتكوين على النخب الممتازة والمتفوقة دراسيا إذ ينص على أن تتوفر بكل جهة ثانوية لا يلجها إلا المتفوقون

بناء على مبدأ التفوق الدراسي كمعيار وحيد، «الثانويات المرجعية» وهذا ما سيعطي ضمانة لمسألة اختراق النخب من قبل تلامذة البوادي والأرياف أو المهمشين اجتماعيا. ومن تم. يصبح «الضابط الرئيسي لإنتاج النخب هو تكافؤ الفرص بالنسبة لجميع التلاميذ المتفوقين»[9].

إن كل تمظهرات بيداغوجيا الكفايات تبرز مظهرا جانبيا للتكوين الإنساني المتعدد الاختصاصات والمعتمد على الكفاية المهنية والتكوين المندمج للشخص مع مراعاة التكوين الأساسي وعدم إهمال حجم الثقافة العامة ودرجة الاختلاف في الحياة الفردية والاجتماعية، يتعلق الأمر في الحقيقة بنظرة للمستقبل لا يمكن أن تتبوأ مكانتها إلا من خلال رد فعل جماعي يتبنى الحوار والتشاور بغية تفعيل وأجرأة هذه النظرة «المقاربة» وربطها بالحاضر والمستقبل من أجل كسب الرهانات المنشودة والمتمثلة «في تحقيق المرونة لفعل التعلم .والانتقال من المعرفة إلى سؤال المعرفة وإدراك التمثلات وتحويل التعلمات إلى قصدية»[10].

وختاما ننتهي إلى القول بأن المقاربة بالكفايات قد تقع في الانحراف والاختزال، إذا اكتفينا بتغيير الخطاب الواصف وبإغراق مقدمات الكتب المدرسية بهذا المصطلح، لذلك يجب التقدم نحو ما سماه «فليب بيرنو/ Philippe Perrenoud» «إصلاحات النمط الثالث» أي إصلاحات تمس إلى جانب البنيات والمقررات ممارسات الاشتغال الديداكتيكي وأشكاله[11].

وتبعا لذلك نتفق مع موقف فليب بيرنو القائل : «إذا ظلت المقاربة بالكفايات على مستوى الخطاب لهثا وراء الموضة، فإنها ستغير النصوص لتسقط في النسيان.. أما إذا كانت تطمح إلى تغيير الممارسات فستصبح إصلاحا من «النمط الثالث»، لا يستغني عن مساءلة معنى المدرسة وغايتها»[12].

الهوامش:

1 ـ لحسن بوتكلاي: «مفهوم الكفايات وبناؤها عند فليب بيرنو، مجلة علوم التربية ، المجلد الثالث، العدد الخامس والعشرون، أكتوبر 2003. ص 79.

2 ـ انظر، عبد الكريم غريب، استراتيجيات الكفايات وأساليب تقويم جودة تكوينها، الطبعة الثالثة، مزيدة ومنقحة 2003، ص 53 ـ و ما بعدها.

ـ انظر كذلك التمييز بين الكفاية والإنجاز عند محمد الدريج من خلال كتابه «الكفايات في التعليم» سلسلة المعرفة للجميع ع 16 – أكتوبر 2000 ـ ص 98.

3- réflections en marge du 15° colloque de l'association québécoise de pédagogie collégiale et du sumposium minéstériel sur la notion de compétence en formation générale « tenus du 7 au 9 juin 1995 à rivière du loup » pour Raymond Robert tremblay- professeur de Philosophie chercheur en pédagogie.

ـ محمد مومن «تكوين المدرسين المبني على الكفاية» مجلة علوم التربية، المجلد الثالث العدد الخامس والعشرون أكتوبر 2003 ـ ص 87.

5 ـ لحسن بوتكلاي: «مفهوم الكفايات وبناؤها عند فليب بيرنو»، مجلة علوم التربية ـ المجلد3 العدد الخامس والعشرون، أكتوبر 2003 ـ ص 83.

6 ـ محمد الدريج: «الكفايات في التعليم»، من أجل تأسيس علمي للمنهاج المندمج ، منشورات سلسلة المعرفة للجميع، دجنبر 2003، ص 182 ـ وما بعدها.

7 ـ انظر الإحالة رقم (3).

8 ـ تعريف عبد الكريم غريب وارد في ثنايا كتابه «استراتيجيات الكفايات»، مرجع سابق.

9 ـ نور الدين العوفي: مداخلة حول بعض تعاريف الكفايات الواردة في أعمال لجنة التوجيهات والإختبارات، منشورة بكتاب «ما هي الكفايات» تـأليف مجموعة من الباحثين ولجنة التوجيهات، إعداد وتعريب: الحس اللحية وعبد الإلاه شرياط، ص 23 ـ مطبعة بني ازناسن.

10 ـ إسماعيل همونى» الكفايات والتمثلات» سؤال في الوظائف البيداغوجية علوم التربية، المجلد 3، العدد 25، أكتوبر 2003، ص 105.

11 ـ لحسن بوتكلاي: «مفهوم الكفايات وبناؤها عند فليب بيرنو» مجلة علوم التربية، المجلد 3، العدد 25، أكتوبر 2003، ص 84.

12- Philippe Perrenoud : « Construire des compétences dès l'école » 2éd., ESF éditeur 1998; Paris, page 32.